المدرسة المصرية وأثرُها في حركة المذهب المالكي
The Egyptian School and its Impact on the Maliki School Movement

سلطاني نور الدين[1]، كمال العرفي[2]
[1]جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة- الجزائر،
noursoltani2010@gmail.com
[2] جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة- الجزائر، dr.kamellarfi@yahoo.fr
تاريخ الاستلام: 2025/10/10 تاريخ القبول: 2025/12/17 تاريخ النشر: 2025/12/25

ملخص:
المذهب المالكي أهمّ وأشهر المذاهب الفقهية المتبوعة، ولعدة عوامل تفرَّع عن هذا المذهب مدارسُفقهيةٌ مالكيةٌ، منأهمها وأكثرها أثرًا في حركةالمذهبالمالكي ونشاطه: المدرسةُالمصرية.

وهذا البحث يُسلِّط الضوء على هذه المدرسة؛من خلال الحديث عن نشأتها،وخصائصها ومميزاتها،ومن خلال الحديث عن أثرها في حركة المذهب المالكي ؛بذِكر بعض أهم أعلامها و عُلمائها ،وأهم كُتبها و مصنفاتها ،مُركّزًا على عَلَمٍ مُهِمٍّ من عُلمائها، ألا وهو: العلَّامةُ خليلُ بن إسحاق ،ومُركّزًا على مختصره الفقهي المعروف بِـــــ: "مختصر خليل"، مع استخلاص جملةٍ من النتائج والتوصيات في خاتمة البحث.

كلمات مفتاحية:المدرسة المصرية،المذهب المالكي، مختصر خليل، المدرسة الفقهية.

Abstract:
The Maliki School is the most important and famous of the followed schools of jurisprudence. For several factors, the school was diverged into many Maliki schools of jurisprudence.

The most important and most influential one in the movement and activity of the Maliki School is the Egyptian school. This research sheds light on this school by talking about its origins, characteristics and features. It also focuses on its impact on the movement of the Maliki School by mentioning some of its most important scholars and figures. Moreover, it tackles its most important books and works, focusing on an important scholar of its scholars, namely: the scholar Khalil bin Ishaq, focusing on his jurisprudential summary known as: "Mukhtasar Khalil", with the extraction of a number of results and recommendations at the conclusion of the research.

Keywords: Egyptian school, Maliki school, Khalil's summary, jurisprudence school.

المؤلف المرسل: ط. د: سلطاني نور الدين، noursoltani2010@gmail.com

مقدمة:

المذهب المالكي أحدُ أهمِّ وأشهر المذاهب المُتَّبَعَةِ في العالم الإسلامي، مُؤسّسُه الأولُ الإمامُ العَلَمُ: مالك بن أنس الأصبحي، وكان تأسيس المذهب في المدينة المنورة في القرن الأول الهجري.

ولقد قيَّضَ اللهُ لهذا الإمام طلبةً أفذاذًا، وتلاميذَ نجباءَ، وَفَدُوا إليه من مختلف أقطار العالم الإسلامي؛ فأخذوا عنه، وتأثَّروا به، وأخذُوا عن غيره وتأثَّروا بهم، وكان هذا عاملًا مُهمًّا أثمر تنوُّعَ الآراء والأنظار، فتفرَّع عن ذلك مدارسُ فقهيةٌ تُنسَب إلى المذهب المالكي.

والمدارس الفقهية المالكيةُ معلومةٌ معروفةٌ، وهي متنوعة؛ تتَّفق في أغلب مصادرها وأصولها وقواعد استنباطها، وتختلف في بعض الأصول والقواعد، وفي مسائل فروعيةٍ كثيرةٍ.

ومن أهم المدارس الفقهية المالكية: المدرسة المصرية، ومع أهمية هذه المدرسة وأثرها في حركة المذهب المالكي، إلا أنها لم تلق من العناية والإفراد بالكتابة والدراسة كما لقيت غيرُها من المدارس، كالمدرسة العراقية، وكالمدرسة المغربية؛ بحكم اعتماد المذهب المالكي في أغلب بلادها، إلا ما كتبه بعض الباحثين -فيما اطلعتُ- عن المدرسة المصرية،إلا أنه اقتصر على طور تأسيس هذه المدرسة فقط.

ولذا أحببتُ من خلال هذا البحث أن أُسلِّط الضوء على هذه المدرسة؛ فأتكلم عن نشأتها، وخصائصها ومميزاتها، وعن أثرها في حركة المذهب المالكي من خلال أهم أعلامها وعُلمائها، وأهم كتبها ومصنفاتها، مُركِّزًا على عَلَمٍ مُهِمٍّ من أعلامها وعُلمائها، ألا وهو: خليل بن إسحاق، المعروف بـ "خليل"؛ صاحبُ مختصر خليل المعروف. وقبل ذلك سأتكلم باختصار عن مفهوم المدرسة الفقهية، وأُعْطِي لمحةً مختصرةً عن باقي المدارس الفقهية المالكية.

فالهدف من هذا البحث: التعريفُ بالمدرسة الفقهية المصرية، وإبرازُ أثرها وأهميتها ببيان أثر علمائهاومصنفاتهم ونشاطهم العلمي في حركة المذهب المالكي، منحيثانتشاره،ومنحيثقُوّتهواستقرارُه.

وقد قسَّمتُ هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة مطالب وخاتمة، تناولتُ في التمهيد مفهومالمدرسةالفقهية، وتعريفًا موجزًا بالمدراس الفقهية المالكية غيرِ المدرسة المصرية، مع التنبيه على المرجع عند اختلاف هذه المدارس، وتناولتُ في المطلب الأول نشأة المدرسة المصرية ومراحل تطورها، وتناولتُ في المطلب الثاني أبرز خصائص المدرسة المصرية وسماتها، وتناولتُ في المطلب الثالث أثر هذه المدرسة في حركة المذهب المالكي، وذكرتُ أنموذجًا من عُلماء هذه المدرسة المتأخِّرين،كان له أثر كبير في حركة المذهب المالكي؛ألا وهو: العلَّامةُ خليلُ بن إسحاق ،صاحبُ المختصر الفقهي المعروفِ باسم: "مختصر خليل"، ثم في الخاتمة ذكرتُ أهم نتائج، وبعض التوصيات المتعلقة بهذا البحث.

1. مدخل مفاهيمي

1.2. مفهوم المدرسة الفقهية:

أما مفهوم المدرسة الفقهية: فالمراد بها: طريقةٌ ينتهجها الفقيه، فيأخذُها عنه غيره، ويُتابعونُه عليها؛ وبذلك تُصبح تيَّارًا ومسلكًا، يُعرَفون بها دون غيرها.

فالمدرسة على هذا الأساس أخصُّ من المذهب الفقهي، والذي يُراد به عند أصحاب الاصطلاح: ما ذهب إليه إمامٌ من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنتاجًا واستنباطًا(الأشقر، 1998، الصفحات 11 - 41).

1.2. المدارس الفقهية المالكية

كثرةُ تلاميذ الإمام مالك كانت سببًا في انبثاق مدارس فقهية فرعية، كلُّ مدرسةٍ لها نشاطها العلمي الذي تتميَّز به منهجًا واستنباطًا، وترجيحًا وفقهًا،وتأليفًا وكتابةً، كلُّ مدرسةٍ لها خصائصها ومميزاتها، وإن كانت جميعُها لا تخرج عن أصول المدرسة المالكية الكبرى.

بالنظر إلى جُملةٍ من العوامل المشتركة بين تلاميذ الإمام مالك، وبسبب التأثُّر بالبيئة أحيانًا، وبسبب التأثُّر بجوانب علميةٍ من شخصية الإمام مالك أحيانًا؛ تشكَّلت أربع مدارس فقهية، كان لها البقاء والتأثير، وهذه المدارس هي: المدرسة المدنِيَّة، المدرسة المصرية، المدرسة العراقية، المدرسة المغربية.

وفيما يأتي تعريفٌ مختصرٌ بكل مدرسة من هذه الأربع إلا المدرسة المصرية؛ فإني سأوسِّعُ الحديثَ عنها:

1.2.2 المدرسةُ المَدنِيَّةُ:مدرسة المدينة المنورة هي بمثابة الأم، وأشبه بالنبع الذي ارتوت منه كل روافد المذهب،ضُربتإليهاأكبادالإبلفيحياةالإمام مالك،وحتىبعدوفاته، وقد نشأت هذه المدرسة وتطورت على يد كبارتلاميذالإمامالكالمدنِيِّين، كعثمان بن كنانة الذي قعد في مجلس مالك بعد وفاته، وكان مُقرَّبا منهفي حياته، وكعبد الله بن نافع الصائغ الذي جلس في مجلس عثمان بن كنانة بعد وفاته، ومن التلاميذ: المغيرة بن عبد الرحمن، ومحمد بن دينار، ومحمد بن مسلمة، وعبد الملك بنالماجشونومطرف بن عبد الله.

أهم ما تميَّزت به مدرسة المدينة المنورة عن باقي المدارس: هو الاعتماد على الحديث بعد القرآن، كمرجعٍ للأحكام دون النظر إلى كون العمل موافقًا له أو غير موافق (المامي، 2002، صفحة 55).

2.2.2 المدرسة العراقية:(البريشي، 2010، الصفحات 11 - 31)**:** هذه المدرسة وليدة مدرسة المدينة، غير أن منهجها الفقهي تأثر بالبيئة الفقهية في العراق، حيث كان السائد فيها منهج أهل الرأي، ولذلك تأثرت مدرسة العراق المالكية بهذه البيئة، وظهر ذلك في ميلها إلى التحليل المنطقي للصور الفقهية والاستدلال الأصولي،

والاهتمام بالتقعيد والتأصيل على حساب تتبع المرويات والسماعات، والتوسع في استعمال القياس، والعناية بالفقه الافتراضي، وهذا ما امتازت به عن باقي المدارس.

نشأت هذه المدرسة وتطورت بواسطة كبار تلاميذ الإمام مالك كعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، ثم قَوِيَتْ أيام قضاء آل حماد بن زيد، وكان منهم القاضي إسماعيل أحدُ الذين شُهد لهم بالاجتهاد بعد مالك. ومن أبرز رجالات هذه المدرسة -والذين كان لهم تأثير واضح في نشاطها-: محمد بن عبد الله الأبهري، وعبيد الله بن حسن بن الجلاب، وعلي بن أحمد المعروف بابن القصار، والقاضي عبد الوهاب بن حسن البغدادي، وغيرهم.

3.2.2 المدرسة المغربية: تأخَّر دخول المذهب المالكي إلى بلاد الغرب الإسلامي، وكان قد سبقه المذهب الحنفي ومذهب الأوزاعي وغيرهما، إلى أن جاء عليُّ بن زياد، وعبد الرحيم بن أشرس، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم؛ وكانوا المؤسِّسين للمذهب المالكي في بلاد الغرب الإسلامي، وجاء بعدهم أسد بن الفرات وغيرهم.

ورغم تأخر ظهور هذه المدرسة إلا أنها أصبحت فيما بعد الممثل الوحيد للمذهب المالكي في المغرب العربي عامة. وقد تعرضت لهزات كبيرة وعديدة، وهي في غالبها هزاتٌ سياسية، لكنها ثبتت أمامها وصمدت.

وأهم مميزات هذه المدرسة: تتبع الآثار،والحرص على تصحيح الروايات في المذهب، وبيان وجوه الاحتمالات، وضبط المذهب على حسب ما يقع في السماع (التلمساني، 1939، صفحة 22).

من أبرز علماء هذه المدرسة: ابن أبي زيد القيرواني، وأبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري ابن القابسي، وأبو بكر محمد بن محمد بن وشاح ابن اللباد، والباجي، واللخمي، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محرز، وابن عبد البر، وأبو الوليد بن رشد الجد، وأبو بكر بن العربي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك مِنَ الباحثينمَنْ يُضيف إلى هذه المدارس: المدرسة الأندلسية، والتي تُنسبُ إلى بلاد الأندلس بأوربا، ومؤسسها زياد بن عبد الرحمن الملقب بشَبْطُون (ت193هـ)، وهو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس، كان من تلاميذ هذا الأخير تلميذٌ كان له الفضل -بعد الله- في تثبيت المذهب المالكي بالأندلس؛ ألا وهو يحيى بن يحيى الليثي،وكان مستشارًاللأمير عبد الرحمن بن الحكم، وقد كان لا يُعيِّنُ قاضيًا ولا يَعْقِد رأيًّا إلا بعد استشارته؛ فكان ذلك من أعظم أسباب التمكين للمذهب.

والحقيقة أنه لا فرق بين المدرسةالأندلسية والمدرسة المغربية، بل هي امتداد لها؛ وذلك لقوة الاتصال بينهما، وتداخل نشاطهما العلمي، وخاصة أن عددًا من علماء

الأندلس هاجروا إلى بلاد المغرب بعد محنتها وسقوطها؛ ولهذا السبب إذا ذُكِر علماء المغاربة في اصطلاح المتأخرين، ذُكر علماء المدرستَين.

كما لا يفوتني التنبيه على أن هذه المدارس المالكية إذا اختلفت فإن المُقدَّم هو المدرسة المصرية، ثم المدرسة المغربية، ثم المدرسة المدنية، ثم المدرسة العراقية.

وسببُ تقديم المدرسة المصرية على غيرها هو اعتماد ما رواه ابن القاسم؛ فإن ما رواه وشهَّره مُقدَّمان على ما رواه وشهَّرهغيره، وإنما نال ابن القاسم هذه المكانة بسبب طول صُحبته للإمام مالك؛ فقد صحبه أزيد من عشرين سنة، ولم يُفارقه حتى مات، وكان لا يغيب عن مجلسه إلا لعذر، وكان عالمًا بالمتقدِّم والمتأخِّر من أقواله، إضافةً لاتفاق أهل المذهب على علمه وورعه وثِقتِه. وهذا يدلُّ على أهمية المدرسة المصرية وأثرها الواضح في المذهب المالكي، وأنها جديرةٌ بالدراسة والبحث.

4.2.2المدرسة المصرية، وهي أول مدرسة تأسَّست بعد مدرسة المدينة، وإنما أَخَّرتُها لأنها المقصودة بهذا البحث.وسأتناول هذه المدرسة بالحديث عن العناصر الآتية: نشأتها وتطورها، خصائصها ومميزاتها، أثرها في المذهب المالكي من خلال أهم أعلامها وعُلمائها، وأهم كتبهم ومصنفاتهم، مُركِّزًا على بعض أعلامها البارزين.

2. ماهية المدرسة المصرية

3.1. نشأة المدرسة المصرية وتطورها:

المدرسة المصرية -شأنُها شأنُ بقية المذاهب ومدارسها- مرَّت بمراحل في تكوينها وتطورها؛ فأول مرحلة هي مرحلة النشأة والتأسيس، ثم مرحلة التَّطور، ثم مرحلة الاستقرار.

وقد مشى القاضي عياض في كتابه "ترتيب المدارك" في ترتيب أصحاب الإمام مالك وأتباعه على هذا التقسيم؛ حيث جعلهم ثلاث طبقات:

أوَّلها: من كان له ظهور في العِلم مُدَّةَ حياة الإمام مالك وقاربت وفاتُه مُدَّةَ وفاته. **وثانيها:** من عُرف -بعد هؤلاء- بطول ملازمته وصحبته واشتهر بعده بتفقهه عليه وروايته عنه. **وثالثها:** قوم صحبوه، صغارُ أسنانٍ أخرجهم بعده الزمان، فقاربوا أتباع أتباعه، وفُضِّلوا بشرف مجالسته وحرية سماعه.

فالمدرسة المصرية -في مرحلة النشأة والتأسيس- تشكلت في وقت مبكر، مما جعلها ثاني مدرسة تظهر بعد مدرسة المدينة، والفضل في ظهور هذه المدرسة راجع -بعد الله تعالى- إلى أوائل من قدم مصر من تلامذة مالك كعثمان بن الحكم الجُذَامِي، وعبد الرحيم بن خالد الجُمَحِيّ. وجاء بعدهما من التلاميذ: طُليب بن كامل اللخمي (ت 173هـ)، وسعيد بن عبد الله المعافري (ت 173هـ) وغيرهم.

فحمل عنهما وعن غيرهما عِلْمَ مالكٍ طائفةٌ من أهل العلم، كانوا فيما بعد ذلكمؤسسين فعليّين للمدرسة المصرية، وعلى رأسهم عبد الله بن عبد الحكم الذي انتهت إليه رياسة المالكية بعد أشهب وعبد الرحمن بن القاسم.

هذا الأخيرُ -ابن القاسم- الذي كان يتذاكر مع أوائل تلامذة الإمام مالك المصريين كعبد الرحيم بن خالد الجُمَحِيّ، قبل سفره إلى المدينة المنورة لطلب العلم على يد الإمام مالك، فما خرج ابن القاسم من بلده مصر حتى استوعب كل فتاوى الإمام مالك.

وقد طالت ملازمة ابن القاسم وغيره كابن وهب للإمام مالك حتى بلغت عشرين سنة، مما أكسبهم معرفة جيدة بمذاهب الإمام واختياراته، وما استقر عليه رأيُّه وما رجع عنه.

فلما عاد هؤلاء الطلبة الذين تتلمذوا على الإمام مالك، والتزموا مذهبه وأصوله الاستنباطية الفقهية، أخذوا ينشرونه بين الناس من خلال حلقات التدريس والتأليف.

ثم حمل لواء هذه المدرسة من بعد هؤلاء أصبغ بن الفرج، والحارث بن مسكين وغيرهما، ومن بعد هؤلاء جاء محمد بن عبد الله بن الحكم، ومحمد بن المواز وغيرهما. واستمرَّت المدرسة في عهد هؤلاء الأعلام في نشاطها وعطائها، إلى أن ابتُلِيت الأُمة بفتنة خلق القرآن، فتأثّرت بها وعانت من ويلاتها، فقد أُخذ الناسُ بها، فلم يبق فقيه ولا مؤذن ولا معلم إلا وامتُحِنَ بهذه الفتنة، فهرب كثير من الناس، ومُلِئت السجون بمن أنكرها، ومنهم من مات مُعذَّبًا في هذه الفتنة كعبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم(فرحون، 1996، صفحة 268).

وبقي أهل مصر يعملون بمذهب الإمام مالكٍ مع مذهب الإمام الشافعي، ويُولَّى القضاءُ من كان مُتَّبِعًا لهما، أو لمذهب أبي حنيفة، إلى أن جاءت فتنةُ العُبيديين سنة 358هـ، ولـمَّا مَلَكَالعُبيديون مصر أَفْنَوْا من كان بها من مذاهب الأئمة الثلاثة -أبي حنيفة ومالك والشافعي- قتلا ونفيًا وتشريدًا، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة، ولم يزالوا كذلك إلى أواخر القرن السادس، فانقطع المذهب المالكي عن مصر نحو قرنين انقطاعا كليا، ثم تراجع وذاع أتم ذيعان، واستمر بعد ذلك(مخلوف، د ت، صفحة 449).

وما إن انتهت هذه الفتنة حتى عاد أئمة المالكية في مصر إلى مكانتهم من جديد، فآلت المدرسة إلى أبي بكر أحمد بن موسى بن صدقة (ت 306هـ) وأحمد بن خالد بن ميسر (ت 309هـ)، ومن بعدهما ابن شعبان (ت 355هـ) وأبي بكر النعالي (ت 380هـ) وغيرهم ممن حمل لواءها حتى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس، رغم اضطهاد العبيديين لهم لما حكموا مصر، هذا الاضطهاد الذي أدى إلى قتل الكثير منهم ونفي وتشريد ما بقي منهم.

خصائص المدرسة المصرية ومميزاتها:

تميزت المدرسة المصرية بعدة مزات وخصائص، أذكر منها:

أوَّلًا: أبرز سمة تميزت بها المدرسة المصرية: اعتمادُ أئمتها -وخاصة ابن القاسم ومن نحا نحوه كابن المواز وغيره- العملَ بالسُّنة التي وافقها عملُ سلفِ أهل المدينة، وتقديمُه على أخبار الآحاد، بل كانت رائدة في هذا الاتجاه، وهذا الأصل هو المعروف بعمل أهل المدينة، وهو ما كان يُعبِّرُ عنه الإمام مالك بإجماع أهل المدينة، وهو المنهج الذي ساد المذهب المالكي وتبنته أكثرية مدارس المذهب.

وقد كان لانتهاج هذا المنحى دورٌ كبير في تبني أحكام كثير من المسائل؛ فقد قالوا بعدم خيار المجلس -رغم ثبوت حديثه- لأن العمل لم يكن جاريًا عليه، وخالفوا في عدد ألفاظ الأذان والإقامة، وقالوا بعدم القراءة خلف الإمام فيما يجهر به، وقالوا بالتسليمة الواحدة في الصلاة، واستدلوا في هذه المسائل وغيرها بعمل أهل المدينة(فلمبان، 2000، الصفحات 122 - 143).

وليس معنى هذا أنهم يعتبرون كل ما رُوي عن أهل المدينة حجة يجب تعميمها في كل البلاد، وإنما كانوا يرون أن منه ما هو عُرفٌ خاص بأهلها، ومنه ما هو دين مخاطب به كل أهل البلاد.

ثانيًا:تميزت المدرسة المصرية بتعلقها الشديد بالإمام مالك في أقواله وآرائه، وإن كان هناك من علماء هذه المدرسة من لا يرون بأسا في معارضة آرائه واختياراته.

ثالثًا:كما تميزت المدرسة المصرية بتبني أقوالها وآرائها في المذهب وعند باقي المدارس، رغم ما تعرضت له من مضايقات وشدائد؛ أدت إلى تراجع نشاطها واستمرار عطائها، ولا دليل أوضح على ذلك مما تقدم أنه: إذا اختلفت مدارس المذهب فالمدرسة المصرية هي المقدَّمة؛ وذلك لأنها تستند إلى رواية ابن القاسم، وروايته وتشهيره مُقدّمان على رواية وتشهيرِ غيره، ومما يدل على ذلك أن أهل قرطبة كانوا أكثر محافظةً وتمسُّكًا بأصح أقوال المالكية، حتى أنهم لم يكونوا يعينون والياً وحاكمًا إلا بشرط أن لا يخرج عن مذهب ابن القاسم.

هذا في الأندلس، أمَّا في مصر وإفريقية والقيروان، فالأمر واضح لا يحتاج إلى تأكيد، فابن القاسم زعيم المدرسة المصرية، وسحنون زعيم المدرسة الإفريقية القيروانية، وهو صاحب المدونة التي هي زبدة آراء ابن القاسم ومروياته عن الإمام مالك، وأكثرها وثوقاً؛ ولذا اعتمد شيوخ الأندلس وإفريقية على رأي ابن القاسم.

رابعًا: تميزت المدرسة المصرية بأن مؤلفات علمائها كان لها تأثير كبير في المذهب؛ فهي أساس المذهب، وعليها اعتمدت باقي المدارس، فمختصرات ابن عبد الحكم، وإن سمع بعض أجزائها مباشرة من الإمام مالك، فإن بقيتها تعتبر مصريةَ الإملاء، مع كونها مصرية التدوين والتبني.

وكتاب الواضحة من حيث المادة الفقهية، أندلسيٌّ مدنيٌّ مصريٌّ، ومن حيث التدوين والتبني فهوأندلسيٌّ، وكتاب العُتْبِيَّة أندلسيٌّ قيروانيٌّ مصريٌّ، من حيث مادته الفقهية، ومن حيث التدوين والتبني أندلسيٌّ، والمُدَوَّنَةُ -مدونة ابن القاسم- مصرية الإملاء والتبني، إفريقية قيروانية التدوين والتبني، وكتاب المجموعة قيروانيُّ الإملاء والتدوين والتبني. وكتاب الموازية مدنيٌّ مصريٌّ في مادته الفقهية، ومصريٌّ من ناحية تبنيه، وكتاب المبسوط عِراقِيٌّ مدني مصري مادة ومضمونًا، عراقي التبني.

ويُلاحظ من خلال هذا العرض الحضورُ القويُّ للمدرسة المصرية في حركة التأليف في المذهب المالكي ومدارسه؛ وخاصة من خلال كتاب المُدَوَّنَةِ، والتي هي أهم مصنَّف بعد الموطأ، وتعد المُدَوَّنَةُ الأصلَ الثاني المعتمد في معرفة فقه الإمام مالك، وهي مرجع جميع الفقهاء في نقل أقوال مالك وابن القاسم قديما وحديثا، وقد حظيت عند علماء المالكية باهتمام كبير؛ فوضعوا عليها الشروح الكثيرة، ومنهم من قام باختصارها.

والمُدَوَّنَةِ أصل علم المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الكتب والدواوين بعد موطأ مالك، ويُرْوَى أنأصحكتاب بعد كتاب الله موطأ مالك، وأنفع وأفيد كتابفي الفقهبعد الموطأ المُدَوَّنَةُ، والمُدَوَّنَةُ هي عند أهل الفقه المالكيين ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب إقليدس عند أهل الحساب، ومكانتها من الفقه مكانة الفاتحة أم القرآن من الصلاة، تُجزئ عن غيرها، ولا يُجزئ غيرها عنها.

وأصل "المُدَوَّنَةُ"ومضمونها ومحتواهاإجاباتُلابنالقاسمعن أسئلةٍ طرحها عليه تلميذُهُ أسدُ بن الفرات؛ ولذا فقد عُرفت أول أمرها بـــ"الأسدية"، ثم جاء سَحْنون -أحد تلاميذ ابن القاسم- فأدخل عليها تغييرات؛ فنقَّحها وهذَّبها، ونسَّق مادتها، وأعاد ترتيب أبوابها، كما أضاف إليها زيادات من الموطأ، مستفيدًا من سماعه من ابن القاسم، فصارت بذلك عملاً جديدًا سُمِيَ: "المُدَوَّنَةُ الكبرى"(الجد، 1988، الصفحات 44 - 45).

3.3 أثر المدرسة المصرية في حركة المذهب المالكي:

إنّ المدرسة المصرية كان لها أثر كبيرٌ في حركة المذهب المالكي، من حيث انتشارُه، ومن حيث قُوَّتُه وثباتُه، ومن حيث ما خلَّفته من إنتاجٍ علميٍّ وتعليميٍّ، صار عُمدةَ المذهب ومرجعَه، ولا أدلَّ على ذلك مما أشرنا إليه في ثنايا ما سبق، عند الحديث عن كتاب "المدونة"، وعند الحديثِ المُتكرّر عن عَلَمٍ من أعلام هذه المدرسة، ألا وهو: ابن القاسم، وهو من علماء وأعلام هذه المدرسة المُتقدِّمِين.

وزيادةً في بيان أثر هذه المدرسة في حركة المذهب المالكي، أذكر هنا أنموذجًا من أعلام هذه المدرسة من عُلمائها المتأخِّرين، كان له أثر كبير في حركة المذهبالمالكي. ألا وهو: العلَّامةُ خليلُ بن إسحاق، صاحبُالمختصرالفقهيالمعروفِباسم:

"مختصرخليل"،أو "مختصرسَيديخليل". وقبل بيان ذلك أذكر ترجمةً مختصرةً للعلَّامةِ خليلِ بن إسحاق، وتعريفًا سريعًا مقتضَبًا بكتابه: "مختصرخليل".

1.3.3 ترجمة مختصرة لخليل بن إسحاق:(التنبكتي، د ت، صفحة 168)

اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

أما اسمه ونسبه: فهو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، وعُرف بلقب الجُنْدِي؛ نسبةً للجُند، لأنه كان يلبس لباسهم،و يتزيَّا بزيِّهم،**أصله** يرجع إلى الكرد، ثم انتقل إلى مصر، وبها كانت نشأتُه ووفاته، **وكُنيتُه:**أبو المودَّة، وأبو الضياء.

وأما مولده ونشأته: فالمصادر لم تذكر تفاصيل تاريخ مولده بالتحديد، إلا أنه يمكن تحديد ذلك بنهاية القرن السابع الهجري، أو بداية القرن الثامن، بناءً على طلبه العلمعلى يد الشيخ أبي عبد الله ابن الحاج، وملازمته للشيخ عبد الله المنوفي، وقد كانا موجدَين في هذه الفترة الزمنية. وأما **مكان ولادته** فباعتبار أن أسرته كانت تسكن القاهرة؛ فمولده كان بمصر، حيث نشأ، وعن شيوخها تعلّم وطلب العلم، وقضى طفولته وشبابه وباقي أيامه بها، ولا يُعرف عنه أنّه خرج منهاإلا خروجه لأداء مناسك الحج.

شيوخه: تتلمذ الشيخ خليل بن إسحاق على عدة شيوخ، منهم:

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاج (ت737هـ)، صاحب كتاب: "مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة" المشهور بين الناس بالمدخل.

2- عبد الله بن محمد بن سليمان المنوفي (ت749هـ)، مغربي الأصل، مصريُّ النشأة والدار، أخذ عنه الفقه وانتفع به، وتأثّر به كثيرًا.

تلاميذه: تتلمذ على يد الشيخ خليل بن إسحاق عدد كبير من التلاميذ والطُّلاب، خاصة وأنه تولّى التدريس والإفتاء ببعض مدارس القاهرة، كالمدرسة الشيخونية، وهي أكبر مدارس مصر في ذلك الوقت. ومن أشهر تلاميذه:

1- بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر التاج أبو البقاء الدميري (ت 805هـ)، فقيهٌ حافظ، تولى القضاء بمصر، والتدريس بالمدرسة الشيخونية.

2- جمال الدين بن عبد الله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسي، (ت 823 هـ)، فقيهٌ تولّى القضاء بمصر، له شرحٌ على رسالة أبي زيد القيرواني، وشرحٌ على مختصر خليل في ثلاثة أسفار.

مصنّفاتُه وكتبه:أَلَّفالشيخ خليل بن إسحاق عدّة مصنفاتمن أهمها:

1- التوضيح: وهو أهم شرحٍ لجامع الأمهات لابن الحاجب، ليس من شروحه ما هو أنفع منه ولا أشهر، على كثرة شروحه،وهو مطبوع مُحقّق.

2-المختصر: وهو المختصر الفقهي، المعروف بـــ: "مختصر خليل"، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه.

3- مناقبُ المَنُّوفِيّ:وهو ترجمةٌ لشيخه عبد الله المَنُّوفِيّ،وهو مطبوع مُحقّق.

وفاتُه: اختلف أهل التراجم في تحديد تاريخ وفاته، وأشهر الأقوال وأقواها في ذلك قولان: فقيل:توفى لثلاث عشر من شهر ربيع الأول من سنة 776هـ، وقيل: توفي سنة (767هـ)،ورجّح القولَ الرابعَ بعضُ المُترجِمين لجملة أسباب،منها مَا ذكره بعضُ تلاميذهالمقرّبين في ذلك، رحمه الله رحمة واسعة.

2.3.3 تعريف مُخْتَصَرٌ بـــ "مختصر خليل" أو "المختصر في فروع المذهب المالكي":

هذا المختصر أبدع فيه أيما إبداع، وجمع فيه فروعًا كثيرةً، وذكر فيه آلافَ المسائل، إلى درجة أن المسألة قد تقع ولا توجد إلا فيه، مع ما فيه من تحرير مسائله، وإتقان ترتيبه وأبوابه، وتوضيحه للمشهور المعتمَدِ من القولين والأقوال؛ ولذا فهو أجمع كتاب في الفقه المالكي، مع الإيجاز البليغ، والاختصار الشديد.

وهو آخر مؤلفاته، قضى في تحريره وتأليفه أكثر من عشرين سنة، مما يدل على حرصه على الدقة العلمية في جمعه، ولذا جاء مقتضبا موجزًا في ألفاظه، دقيقا متينًا في مصطلحاته، جامعا مستوعِبًا لمعظم أمّهات مسائل الفقه المالكي، بل وفروعه وجزئيّاته .

وفيما يأتي ذكرٌ لبعض الجوانب التعريفية بهذا المختصر:

مصادر الشيخ خليل في مختصره:مصادره التي اعتمدها في هذا المختصر، أمهاتُ كتب المالكية، ولكن أهم مصادره ما ذكره في مقدمة مختصره، حيث ذكر خمسة مصادر وهي: كتاب المدوَّنة لسُحنون، وكتاب التبصرة لأبي الحسن اللَّخمي -وهي من أهم شروح المدونة-، وكتاب الجامع لأبي بكر بن يونس -وهو تلميذ اللّخمي-، وكتاب شرح التلقين للمازري، وكُتُب ابن رشد الجدّ، ككتابه: البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، وكتابِه المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة منالأحكام(إسحاق، 2020، الصفحات 39 - 40).

أبوابُ المختصر وفُصولُه:رتَّب الشيخ خليل كتابه المختصر على أربعة وستين بابا؛ حسب الترتيب الذي سار عليه صاحب كتاب المدونة. وقد وصل الشيخ خليل في تبيض كتابه المختصر إلى باب النكاح، إلا أنّ الموت سبقه وداهمه فلم يتمكن من إكماله، فترك بقيّته مسودة قام بجمعها وإكمالها تلامذته، وألّف تلميذُه وصهرُه بهرام باب المقاصة الذي أغفله المؤلف، وأكمل تلميذه الأقفهسي جملة يسيرة منه ترك خليل لها بياضا.

اصطلاحُه فيه:

وأما **واصطلاح الشيخ خليل في مختصره**؛فقد أوضح ذلك وصرَّح به في مقدمة مختصره، وبيَّن معاني الرموز والاصطلاحات والمصادر التي سيعتمدها في كتابه هذا كالآتي:

- صرَّح أن مصطلح (فيها) يشير به لكتاب المُدونة، ومصطلح (أَوَّلَ) يشير به إلى اختلاف فهم شُرَّاح المُدونة، ومصطلح (الاختيار) يشير به إلى اختيار العلَّامة اللخمي، ومصطلح (الترجيح) يشير به إلى ترجيح العلَّامة ابن يونس، ومصطلح (الظهور) يشير به إلى رأي ابن رشد الجَدِّ، ومصطلح (القول) يشير به إلى رأي المازري، ومصطلح "الظهور" يشير به إلى ما أظهره ابن رشد، ومصطلح "القول" يشير به إلى ما ذكره المازري.

-أينما ذكر مصطلح "خِلَافٌ" فَذَلِكَ لِلِاخْتِلَافِ فِي التَّشْهِيرِ بين علماء المذهب، وَحَيْثُ ذَكَرَ قَوْلَيْنِ أَوْ أَقْوَالًا في المسألة فَذَلِكَ لِعَدَمِ اطلاعه في الفرع على أرجحية منصوصة.

-كما أنه يعتمد من المفاهيم مفهوم الشرط فقط، ويُشير بـــ "صحح" أو "استحسن" إلى أن شيخا من شيوخ المذهب غير الذين ذكرهم في هذا الاصطلاح صحح هذا القول أو استظهره.

- كما ذَكَرَ أنه يشير بمصطلح "التردد" لِتَرَدُّدِ الْمُتَأَخِّرِينَ من علماء المذهب فِي النَّقْلِ، أَوْ لِعَدَمِ نَصِّ المتقدمين على هذا القول، وذَكَرَ أنه يشير بمصطلح "لو" إلى خلاف مذهبي مع بقية المذاهب الفقهية.

مزايا مختصر خليل:

1- أنّه يشتمل على الأقوال المتفق عليها بين علماء المذهب المالكي، مع الاعتماد- في الغالب- على المشهور في المذهب.
2- أنّه مقدَّم على غيره من مؤلفات المذهب.
3- أنه اقتصر على ما يُحتَاجُ إليه في الفتوى، فإذا تساوت عنده أقوال علماء المذهب في الدرجة، فيكتفي بالإشارة إلى الخلاف بين تلك الأقوال، ثم يبيّن موقف واختيار العلماء الذين مال إلى ترجيحهم.
4- أنه توسع في ذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها ونَقَل منها، وإن كان الغالب في اعتماده على المدونة لسُحنون، والتهذيب للبراذعي.
5- أنه يشتمل على مسائل وفروع فقهية كثيرة، وصل عددها نحو مائة ألف مسألة،أُخذت واستنبطت من لفظ كلامه الصريح، واستنبطت مثلها من معنى كلامه، وهذا على سبيل التقريب، وإلا فإن عدد المسائل والفروع الفقهية المذكورة فيه أكثر من ذلك.

6- تميَّز بدقته في استعمال اللّغة والمصطلحات، واختيار الألفاظ و العبارت، مع حسن توظيف الروابط بين المسائل وترتيبها، وهذا ما دفع الشرّاح إلى الاعتناء بهذا المختصرقراءة وإقراء، والدراسةفهمًا وأداءً؛لأنه السبيل القويُّ إلى فهم ألفاظه، وحل ألغازه.

7- تميَّز بالقدرة والبراعة والمهارة والإبداعفي جمع النظائر والمسُتُل الفقهية.

8- تميَّز بالإتقان والإجادة في الترتيب بين المسائل الفقهية، مع حسن اختيار القيود والاحترازات المناسبة لتلك المسائل.

ولا يعني هذا أنه سَلِم من النقد والاعتراض، فأبى اللهُ أن يُتِمَّ إلا كتابه، ومن أهم النقد الذي وُجِّه له، ما فيه من المبالغة في الاختصار والإيجاز، حتى وصل ذلك إلى حدِّ الألغاز، فهو مختصرُ مختصرِ المختصرِ -بتكرُّر الإضافة ثلاث مرات-، فبلغ بالاختصار غايته ونهايته، فاحتاج المختصر إلى شروح، واحتاجت الشروح إلى حواشٍ، واحتاجت الحواشي إلى تقريرات، وهكذا في سلسلة لا تنتهي.

3.3.3 أَثَرُ "مختصر خليل" في المذهب:

الشيخ خليل ينتمي إلى المدرسة المصرية -مكانًا ومذهبًا-، ونحن نريد أن نُدلِّل على أثر هذه المدرسة في المذهب المالكي من خلال مختصر الشيخ خليل، وذلك من خلال النقاط الآتية:

1- من أكبر الأدلة على أثر "مختصر خليل" في المذهب وفي مدارسه ما سبق الإشارة إليه، من اهتمام علماء المالكية به، واحتفائهم به؛ شرقًا وغربًا، شرحًا ونظمًا، درسًا وحفظًا، واستدراكًا وتحشيةً، وقد تنوّعت الكتابة عليه إيجازًا وإطنابًا، حتى تركوا الاهتمام بكل كتاب سواه، غير كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.

2- أن هذا المختصر نال مكانة واهتمامًا لا مثيل لهما عند الفقهاء، وكاد يَقضي على ما قبله من المختصرات الفقهية، حتى اشتهر عن بعض متأخري المالكية أنهم خليليون إن ضلَّ ضلوا، وإن اهتدَى اهتدَوْا، على ما فيها من مبالغةٍ وتعصُّبٍ.

3- أن المالكية منذ تأليفه وشيوعه، اقتصروا عليه وعلى شروحه، أو كادوا؛ حيث وضع الله القبول لهذا المختصر، فعكف الناسُ عليه شرقًا وغربًا، واعتمدوا عليه في الإفتاء والقضاء والتدريس، وصاروا من مصر إلى المحيط الغربي خليليين، لا مالكية.

4- أنه لم يلق في جانب الشرح والتأليف مختصرٌ من المختصراتفيجميعالمذاهب، ما لقي مختصرخليل من وفرة الشروح وكثرتها، حيث بلغت عددًا هائلًا، أوصلها بعضهم إلى سبعينوخمسمائةوألف (1570) شرحٍأوطُرَّةٍ(علي، 2000، صفحة 445).وهذا يدلُّ على منزلة هذا المختصر العالية، وأهميَّته البالغة، وفوائده الكثيرة، ومنافعه العظيمة، وأثره الكبير في مذهب الإمام مالك.

4.خاتمة:

في ختام هذا البحث أذكر ما ظهر لي من بعض النتائج والتوصيات، كالآتي:

1- أهمية التلاميذ والدارسين والمؤلِّفين في نشر المذهب المالكي.
2- تنوُّع المدارس الفقهية في المذهب المالكي من عوامل قُوّته وثرائه، واستمراره وبقائه.
3- المقدَّمُ عند اختلاف المدارس الفقهية المالكية هو: المدرسة المصرية،ثم المدرسة المغربية،ثم المدرسة المدنية،ثم المدرسة العراقية.

وتوصلنا من خلال بحثنا هذا إلى اقتراح بعض التوصيات، وهي كالآتي:

1- ضرورة العناية بالمذهب المالكي؛ دراسةً وتدريسًا، وعنايةً بتُراثه وموروثه الغنيِّ الثَّريِّ، سواء ما يتعلَّق بأعلامه وعلمائه، أو ما تعلَّق بمؤلفاتهم ومصنفاتهم ومناهجم.
2- إخراج كتب المذهبالتي لا تزال في عالمالمخطوطاتإلىعالمالمطبوعاتمُحقَّقَةًصافيةً، ميسَّرَةً للدارسين والباحثين.
3- على الجامعات والمراكز العلمية والعلماء وطلبة العلم، أن يحرصوا على تدريس الفقه المالكي، ومحاولة تيسيره وتقريبه للدارسين بلُغةٍ وأسلوبٍ تناسب عصرهم ومستواهم، مع تذييل كل ما يمكنه أن يصرفهم عن دراسته.
4- طباعة كتب المذهب، والدراسات والبحوث التي كُتبت عنه -لاسيما الجامعية منها-، طباعةً رائقة منقَّحةً، تسرُّ الدارسين والباحثين وطلبة العلم.

المراجع:

أبو الوليد ابن رشد الجد. (1988). *المقدِّمات والممهّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدوّنة من الأحكام الشرعيات، والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق: محمد حجّي، ط1*. بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي.

أبو عبد الله الحطاب. (د ت). *مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل*. موريتانيا: دار الرضوان.

أحمد بابا التنبكتي. (د ت). *نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط1*. طرابلس - ليبيا: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

أحمد تيمور باشا. (1990). *نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، ط1*. دار القادري.

القاضي عياض بن موسى السّبتي. (1983). *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي وغيره، ط2، ج4* . المملكة المغربيّة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حسَّان فلمبان. (2000). *خبر الواحد إذا خالف عمل أهل المدينة، رسالة ماجستير، ط1*. السعودية: دار البحوث للدراسات وإحياء التراث.

خليل بن إسحاق. (2020). *المختصر في الفتوى بمذهب مالك بن أنس "مختصر خليل"، عناية خالد العلمي، ص1*. الجزائر العاصمة: الخزانة الجزائرية للتراث.

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني. (1939). *أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مجموعة من الباحثين، ج3* . القاهرة - مصر:: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

عبد المجيد الصلاحين وإسماعيل البريشي. (2010). سمات المدرسة العراقية في المذهب المالكي، ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد6، العدد1*، ، الصفحات 11 - 31.

عمر سليمان الأشقر. (1998). *المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية، ط2*. الأردن: دار النفائس.

محمد إبراهيم علي. (2000). *اصطلاح المذهب عند المالكية، ط1*. دبي: دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث.

محمد ابن غازي. (2008). *شفاء الغليل في حل مقفل خليل، تحقيق أحمد نجيب، ط1*. القاهرة - مصر: مركز نجيبويه.

محمد المختار محمد المامي. (2002). *المذهب المالكي (مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته)، ط1*. الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ.

محمد بن محمد مخلوف. (د ت). *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1*. دار الفكر.

وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء (مجموعة من الباحثين). (2015). *المذاهب الفقهية الأربعة (أئمتها، أطوارها، أصولها، آثارها)، ط1* . الكويت: دار الإفتاء.